Diyala Journal
for Human Research
Website:
djhr.uodiyala.edu.iq

مجلة ديالى
للبحوث الإنسانية

p ISSN: 2663-7405
e ISSN: 2789-6838

مجلة ديالى للبحوث الانسانية
العدد (٩٨) المجلد (٣) كانون الأول ٢٠٢٣

نمط الاستعارة في مقام النّور والظّلام في التعبير القرآني

قاسم كريم أحمد حمد الخولاني
مديرية تربية ديالى / قسم التعليم المهني

أ. د إياد عبد الودود عثمان الحمداني
جامعة ديالى/كلية التربية للعلوم الإنسانية

Abstract

In this research, I chose a number of texts that I collected from the book (Al-Bahi Fām Taḥlān fi al-Ammah) by Al-Farra' (207 AH), which is the second book on melody after Al-Kisa'i's book.

I began the research with an introduction, in which I talked about the importance of collecting lost heritage, then I pointed out the differences of scholars who mentioned Al-Farra's opinions in naming the book (Al-Bahi), and I identified the sources that Al-Farra relied on in his book (Al-Bahi), and I mentioned a number of its texts, distributed into chapters, and I extracted them from Its meanings, then I concluded the research with some of the results I reached through this study, and appended the research with references to texts, sources, and references.

Email:*Metonymyman@yahoo@com*
qassmka0@gmail@com

Published:1-12-2023

Keywords: التعبير القراني , النور الظلام ، الاستعارة.

هذه مقالة وصول مفتوح بموجب ترخيص
CC BY 4.0
(http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)

الملخص

اخترتُ في هذا البحث عددًا من النصوص التي جمعتها من كتاب (البَهيُّ فيما تَلحَنُ فيهِ العامَّة) للفرّاءِ(٢٠٧هـ)، وهو ثاني كتاب في اللَّحن بعد كتاب الكسائي.

بدأت البحث بمقدمة، تحدثت فيها عن أهمية جمع التراث المفقود، ثم أشرت إلى اختلاف العلماء ممن ذكروا آراء الفرّاء في تسمية كتاب (البهي) وحددت المصادر التي اعتمدها الفرّاء في كتابه ا(لبَهيّ)، وذكرت عددًا من نصوصه، موزعة على أبواب، وخرجتها من مظانها، ثم ختمت البحث ببعض النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة، وذيّلت البحث بإحالات النصوص والمصادر والمراجع.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين , والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين, حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين, وعلى صحبه الميامين .

نمط الاستعارة هو أحد أقسام البيان , ومعه التشبيه والكناية, أما ثنائية النّور والظلام فهي بيضة القبان التي يدور حولها البحث, يقترن ذلك كله بوجوده في القرآن الكريم .

تحدثت المصادر القديمة والحديثة في الاستعارة وأنواعها ومظاهر تعبيرها في ألوان بمقامات مختلفة , بيد أنها لم تتخصّص بدراسة الاستعارة في مقام ثنائيّة النّور والظّلام , وهذا ما يظهر دراستي بطريقة جديدة قد تتمكن من إقامة تصوّر عن خصوصيّة التعبير القرآني بالاستعانة من منهج التحليل البلاغي الذي يفيد من إجراءات التحليل الأسلوبي في بعض المواقع .

توزعت مادة البحث على وفق الآتي :

توطئة :

بينت فيها ما الاستعارة , ومكانة اللغة العربية , وكذلك مكانة القرآن الكريم , لتواجد الاستعارة من خلالهما , وأعقب التوطئة , تمّ المرور على رأي المتقدمين فيها , وبعدها عند المعاصرين , وبعد ذلك تطرق البحث إلى تأصيل مصطلح الاستعارة وأقسامها , أما المفصل الأخير فقد كان تطبيقًا عمليًا لاستخراج الاستعارة في مقام النّور والظلام في القرآن الكريم . تلا ذلك خاتمة لخصت فيها أهم ما توصل إليه البحث .

تعدُّ الاستعارة صورة بيانيّة ,ولونًا من ألوان الخيال, لا يتقنها إلا الأديب الحاذق المتمرّس في صنع الأخيلة, وتعدّ الاستعارة من المجاز اللغوي , والمجاز في البلاغة أبلغ من الحقيقة, فهو يحقق جانبًا من الإغراب والمبالغة , حين يعطي قدرة تصويرية إضافية ؛ لأنّ الاستعارة قائمة على خصائص أهمها : الإدعاء, والعدول , ومعنى المعنى والمهارة.

وبصورة مختصرة فإنّ الاستعارة هي تشبيه حذف أحد طرفيه, والادعاء والعدول الذي سميّ في مكان آخر (الانزياح) والمهارة , وكما نعلم فإنّ لغة القرآن الكريم هي اللغة العربية , وعليها مدار

البحث , و القرآن المجيد هو معجز بفصاحته وبلاغته وفي نظمه وأساليبه, وهذه المعجزة مستمرة إلى يوم القيامة ,

وكما هو معلوم أيضًا أنّ اللغة تبنى من مجموعة كلمات , الكلمة المفردة تعدّ مادة الصياغة والكلام , يشكلها المبدع مع غيرها من الكلمات على وفق طرائق منتخبة , فيصنع منها صورٌ رائعة تأسر لبّ المتلقي , ذلك أنّ الكلمة مرتبطة بالإنسان والكون والعقل, فالكلمة في علم اللغة الحديث لا تعدّ مجرد أصوات , ونحصل عليها من جملٍ عرضية , بل يتصدر فيها الفكر والدلالة التي تعتمد على نظرة الإنسان وتصوره للوجود .

وهنا يظهر دور المبدع الذي يمكنه اختيار الكلمات الأنسب , يأخذها من ثروته اللفظية , ومن المخزون اللغوي عنده , فيقوم بصياغتها وبطرق تعبير فريدة مميزة , فيكون من شأنها أنْ تعبر عن مشاعره وأفكاره وبأبهى الصوّر. وبذلك يحصل الإبداع.

إنّ عملية تواصل الإنسان مع العالم المحيط به, تتم بوساطة أبواب مهمة , ألا وهي (الحواس) , وتكون هذه الحواس أدوات الذهن البشري , فالإنسان وإثناء تعامله مع محيطه تنشأ في داخله مشاعر و أحاسيس تختلط مع الأفكار التي رسمها عنه , فينتج عن ذلك خبرات شعورية , تشعره بالجمال والإبداع , وكل حاسة من هذه الحواس من هذه الحواس وظيفتها التي وجدت من أجلها , وإنّ لحواس دورٌ كبيرٌ في تذوق الجمال , فينتقل ذلك للنفس البشرية فتتحرك المشاعر والأحاسيس فيتولد الإبداع, ومن المؤكد أنّ الشعور الذي يتولد عند المبدع قد لا تجده عند غيره , ويجب أن يقترن الإبداع بالانفعال , هذا الانفعال الذي يعد جوهر الإبداع يجب أن يرافقه خيال واسع؛ لأنّ الخيال يحرر الذهن من الاختصار على ما يدور في محيط المبدع في الواقع والحقيقة؛ لأنّ الإبداع يتجاوز المألوف , ولا بدّ من القول : إنّ القدرة على التخييل عند المبدع أقوى ممالا هي عليه عند غيره, مما يتيح له حرية الخيال في أن يرى حرية المشابهة بين ليلى والقمر , عندما يقول (حضر القمر) , فعدلَ بعلاقة المشابهة عن أصل استعمالها الطبيعي المعقول , وقد تمّ ذلك بوساطة الخيال , وعلى ذلك فإنّ المبدع يخلق صورًا واستعارات لم تخطر ببالنا.

والنص الذي نقوم بدراسته هو نص معجز, بل في المفهوم العقدي عند المسلمين نصّ مقدس يقع في مرتبة متقدمة في الإبداع؛ إذ إنّ واحدًا من أسماء الله تعالى هو(البديع) , وإنّ القرآن الكريم هو نصّ معجز جاء ليتحدى العرب.

الاستعارة عند المتقدمين :

يعدّ الجاحظ (ت٢٥٥هـ), أول من عرّفَ الاستعارة , وتعاقبت تعريفاتها عند من تبعه, والحقّ أنّ الاستعارة قد تطور مفهومها وصارت تلازم الكلام عند الأدباء , ذلك ما عكس قول الشريف المرتضى(ت٣٣٦هـ),

أما التطور الحقيقي للاستعارة , فإنه وقع قد في كلام الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧٤هـ), وبصورة كبيرة,

الاستعارة عند المعاصرين:

لقد شكلت الاستعارة المستوى الأول بالنسبة لعناصر الإبداع في الصورة الأدبية , مكونة أسلوبًا مميزًا قائمًا على تحطيم التواصل والحدود التي تحاول علاقات المشابهة إبقائها, فالاستعارة من أهم عناصر التصوير المجازي.

إنّ وظيفة الصورة البيانيّة التي تتحدد في معرفة وظيفة الصورة المجازية (الاستعارة) , وطبيعة احتضانها للمعنى والفكرة, فهي تفاعلية تختلف عن الوظيفة التي يظهرها مصورّها من خلال الصلة بين طرفيّ الاستعارة .

يرى بعض المعاصرين أنّ الصورة الاستعاريّة , تحقق ما يسمى باللغة التجسيمية التي تحاول أن تجسم الأشياء . وبذلك يبرز الإبداع الحقيقي فتتحقق الشعرية (POETICS), ومنهم من عدّ التشخيص والتجسيم من وظائف الاستعارة المكنية, رغم الاختلاف في الاصطلاح, وقد عدّه الدكتور فاضل التميمي تجسيدًا, وأعتبره يقوم بوظائف الاستعارة .

أما الدكتور إياد عبد الودود عثمان الحمداني, فعنده التشخيص إضفاء صفات إنسانية على المحسوسات والجماد, وبذلك نجد أنّ التشخيص والتجسيم يمنحان للجماد حياة , تجعله يتحرك ويضحك ويبكي وغبرها وغيرها.

يكون بذلك الأسلوب القرآني قد كشف لنا أنّ الاستعارة التصريحية قد تثير من إفادتها من عملية الاستبدال في الحروف , يقول عن ذلك الزمخشري(ت٥٣٨هـ), تفيد المجاز, وهي شبيهه بما يحصل في الاستعارة التصريحية .

وكما هو معلوم أنّ الاستعارة من المجاز اللغوي كما ذكر البلاغيين .

وفي الحقيقة أنّ الاستعارة هي تشبيه حُذِفَ أحد طرفيه (المشبه أو المشبه به) , إذ لا بدّ من حذف أحدهما ,ولا تصح بحذفهما معًا , و لا يصح وجودهما معًا, فإنّ وجودهما معًا كان تشبيهًا وليس استعارة.

فتكون الاستعارة, هي استعمال لفظ في غير ما وضع له في أصل اللغة .

وأركان الاستعارة ثلاثة , هي : مستعار منه يقابله (المشبه به) , في إجراء التشبيه له, ومستعار, يقابله (المشبه) , في إجراء التشبيه ,أما المستعار , فهو اللفظ الذي يتم نقله , أو تتم استعارته .

أقسام الاستعارة :

يذكر أنّ للاستعارة أقسام كثيرة , نأخذ منها ثلاثة أقسام فقط ,هي :

١ – الاستعارة التصريحية, وهي ما يصرح فيها بلفظ المشبه به , كما في قولنا : (اسقطَتْ من عينها لؤلؤًا), فقد استعار اللؤلؤ للدموع, فصرح بالمستعار منه (المشبه به), ولم يصرح بالمستعار له (المشبَّه).

ومن مميزات هذه الاستعارة ارتكازها على التصريح بالمشبه به كما ذكرنا آنفًا , وهذا الارتكاز هو الذي يكشف عن الأثر المجازي ومدى التعمق في الخيال , لذلك تكون بعض الأحكام غير دقيقة ؛ لأنها عامة تهمل الجانب الشمولي و السياقي .

٢ – الاستعارة المكنية , وهي ما يحذف فيها المستعار منه (المشبه به) , ويرمز له بشيء من لوازمه, ويصرح بالمستعار له(المشبه) , كقولنا : (الجندي العراقي يفترس العدو) , فقد صُرِحَ بالمستعار له (المشبه) , الجندي العراقي , ولم يصرح بالمستعار منه (المشبه به) , بل ذكر بعض لوازمه (الافتراس), ليدل عليه , ولم يذكر كونه أسد أو وحش صراحةً.

وتتميز الاستعارة المكنية بتجاوزها الحدود بين الإنسان والحيوان وما يحيط بنا من موجودات , مما يثير تكثيف التخييل, وقد عدّ ابن الأثير ذلك من التوسع في الكلام .

نجد في الاستعارة المكنية , شيء من الابتعاد عن التشبيه ,إذ تنبعث منها روح الكناية , لتدخل بشكل صريح ضمن تشكيل الصورة التي لا يوجد فيها مشبه به (مستعار منه) , ويكنى عنه بذكر شيء من لوازمه, ويكون المستعار له الموجود(غير المحذوف) ,دالًا على المستعار منه(المشبه به) المحذوف[٣], كما في قولنا: (يفترس) فهي من لوازم الأسد (الوحش) .

والظاهر أنّه قد تتداخل الاستعارتان التصريحية والمكنية معًا , إذ يمكن إجراء الاستعارة المكنية على أنها تصريحية ,بشرط عدم التكلف ,أو بسبب أمر خارج عن الإبداع في العمل الأدبي .

٣ – الاستعارة التمثيلية, وهي تركيب استعمل في غير ما وضع له بوجود علاقة المشابهة, مع وجود قرينة مانعة من التصريح بالمعنى الأصلي .

ونجد الاستعارة التمثيلية فيقولنا : (شرح المعلم الحروف الأبجدية والقواعد والأدب, وكان ذلك سببًا في نجاحهم), في الحقيقة يدل هذا القول , إنّ المعلم استعار هذه المواضيع؛ لنفهم من ذلك أنّه وصل لهم المادة , عن طريق الاستعارة التمثيلية , ذلك بأكثر من مستعار منه(مشبه به), وهنا استعار قرينتها (حالية), وعلاقتها المشابهة والمستعير له(المشبه) هو(الطلاب), والمستعار منه(المشبه به) , المواد العلمية المتمثلة بالحروف الأبجدية والقواعد والأدب, فنجد أنّ المستعار منه لم يكن مفردًا , بل تركيبًا فتحققت الاستعارة التمثيلية .

ويذكر أنّ الاستعارة التمثيلية تشبه في آلية عملها الاستعارة التصريحية بيد أنّ الأولى تكون في التركيب , وهي أقرب إلى الكناية كما أشرنا لذلك؛ لأنها تحاول تشكيل عرف اجتماعي , وهذا ما ينشط الخيال.

لعل ما تقدم من الاستعارة يبيّن لنا ماهيتها لندخل إلى مقامها في النّور والظّلام في القرآن الكريم .

أما النّور , فله معانٍ عدّة ,واسم الله العظيم منها, والقرآن المجيد ,هو النّور وأدلته ,وجاء في مقام يحيل على محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) , وكذلك جاء بمعنى الإسلام والإيمان والهداية وغيرها,

أما الظلام , فهو الآخر له معانٍ عدّة, أهمها الكفر والشرك والضلالة والتيه عن كل ما هو حقّ ,فهو موت حقيقي .

القرآن قرين النّور :

وصِفَ القرآن بأنه نور في أكثر من أربعة مواضع فيه, وهذا لا يمنع من وجود مواقع أخرى يمكن حمل النّور فيها عليه , ومن هذه المواضع, كما جاء في (المائدة:١٥).

نجد في هذا التصوير البياني الرائع الجمال , صورة مجازية واضحة, إذ شبه القرآن الكريم بالنّور, ذلك عن طريق الاستعارة التصريحية, إذ ذكر المستعار منه (المشبه به) النّور, وحذف المستعار له (المشبه) القرآن , ومن المفسرين من قال أنّ النّور هو النبي محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم ﴾, ومنهم من قال أنّه القرآن الكريم, بما فيه من أحكام وتعاليم قيّمة .

فيكون القرآن هو النّور الذي يضيء الدرب لعقول النّاس ,وصولًا إلى حقيقة الأمر من خلاله ,هذا النّور الذي يصدر من مصدر النّور الله عزّ وجل , ويتمثل ذلك في (القرآن الكريم), فيهتدي به من ظلّ, فصارت تسمية القرآن بالنّور, ؛ لأنه ينير الطريق لسالكيه فيهتدوا , فضلًا عن كون القرآن المجيد فيه جذب للقلب والروح ,ولا شك أنّ نّور القرآن أبلغ وأكبر من كل نور, فتتجلى لدينا وظيفة النّور (القرآن المجيد), وهي إضاءة العقول والقلوب , والكشف عن رؤية حلال الإسلام من حرامه , وثوابه من عقابه ,وغير ذلك من أحكامه الجليلة.

الاستعارةُ في مَقَامِ النّورِ في الكتبِ السماويةِ :

على غرار ما جاء فيه , يدل أنّ القرآن الكريم قد وصفَ بالنّور , وكذلك التوراة والإنجيل , ومما جاء في القرآن الكريم, كون التوراة هدًى ونور, قوله تعالى في (المائدة: ٤٤), نجد في هذا التصوير البياني ,صورة بيانيّة, تقترن باستعارة تصريحية, إذ ذكر المستعار منه (المشبه به) الهدى والنور .

وقد ذُكِرَ الإنجيل في السورة نفسها ,الآية (٤٦), وأنّ فيه هدًى ونور, ونجد في الآيتين اقتران الهداية مع النّور, ونحن نعلم أنّ الهداية هي النّور , وقد جمعهما معًا, مما أعطى للنور طاقة أكبر, فالنور يأتي في سياقات قرآنية كثيرة بمعنى الهدى , وبوساطة واو العطف أعطى للنور طاقة إضافية ؛ لأنّ الواو على رأي البصريين تفيد الجمع والمشاركة, فعندما نقول : (حضر حسن وحسين) , فقد حضرا معًا , صار عندنا جمع ومشاركة ,فيكون حسن وحسين في المقام نفسه , في المشاركة نفسها, الوقت نفسه, نصل إلى أنّ هذه المشاركة و بوجود واو العطف تعطي إيحاء ابتدائي لارتباط النّور بالهدى أصلًا , فيكون القرآن والتوراة والإنجيل , أصل لكل بركة, ولكل خير ؛ لأنّ ضياءهما يستقطب الظلام.

اسْتعَارَةُ النُّورِ وَالظّلَامِ مُقْتَرنَة با لإسْتواءِ :

وردَ في القرآن الكريم أكثر من نص قرآني , تقترن فيه الثنائية الضديّة (النّور والظّلام) , بالإستواء في مقام الاستعارة ,منها قوله تعالى في (فاطر: ١٩- ٢٢).

اقترنت ثنائية النّور والظلام بالإستواء بحضور النفي الصريح, وكانت الاستعارة هنا تصريحية , ذلك بذكر المستعار له (المشبه به) , إذ كان يتمثل في الظلمات ,الذي حذفَ فيها المستعار له(المشبه) الكفر, وذكر المستعار منه (المشبه به) الإيمان, الذي يمثل المستعار له (المشبه) .

هذا وقد أجتمع في هذا النص المبارك أكثر من متضاديّن , الأعمى والبصير ,الظلمات والنّور, الظل والحرور , والأحياء والأموات , مع وجود حرف العطف (الواو), الذي يشير إلى وجود تلاحم بين المعطوف والمعطوف عليه , فهما يعبران عن معانٍ مشتركة وبشكل غير مباشر ,فهما يعبران عن دلالة الكفر والإيمان , فنجد الكفر في العمى وفي الظلمات ,وفي الحرور والأموات , ونجد الإيمان في البصير والنّور والظل والأحياء .

فمن البديهي أن لا يستوي الأعمى في بصيرته مع ما في الدين الإسلامي من نور وهداية وأحكام وشرائع , من بعدها جنات تجري من تحتها الأنهار, هذا بإتباع النّور الذي جاء به نبينا محمد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ , من مصدر النّور الله تبارك وتعالى , عن طريق ناقل النّور (القرآن الكريم), ولا يسلك طريق النّور إلا البصير الذي يرى بعينيه وقلبه نور الهداية والإيمان.

وشبهت لنا هذه الاستعارة الكفر والضلالة والشك كونها ظلمات يتيه فيها الإنسان , فهو يتخبط في مسالك الجهل والضياع, أما النّور فهو الإيمان والهداية ,وكل ما يحمل من معانٍ ترشد الإنسان المؤمن إلى الصراط المستقيم .

وكما أنّ الأعمى لا يستوي مع نافذ البصر والبصيرة, فإنّ الظلمات لا تستوي مع النّور, وكذلك الظلّ الظليل لا يستوي مع نور الشمس ودفئها, وقد عدّ الله عزّ و جل النّور حياة, يقابله الظلمات فهي موت بعينه.

من خلال هذه الاستعارة, تبرز عندنا وظيفة تؤدي بنا إلى حقيقة لا يمكن تغافلها , وهي(نفي الإستواء) بين النّور والظلام , وقد وردت أمثلة عينية مهمة ومقارنات , منها ما يخصّ الظلمات, وهي (العمى , والحرور, والموت), ومنها ما يخصّ النّور ,وهي (البصر, والبصيرة, والظلّ, والحياة), هذا وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية المباركة, بتحدي صريح للكافرين , أنهم لا يمكنهم أن يسمعوا الأموات في القبور , وهو وحده القادر على ذلك , كما أنّ الأموات تنتهي صلتهم بالحياة , وبإمكانية سماع كلام الحقّ والنظر إلى نور الهداية, فقد انتهى وقت التبصر والبصر بالنسبة لهم.

استعارة النّور والظلام مقترنة بفعل (الإخراج) :

استعار القرآن الكريم , ثنائية (النّور والظلام) الضديّة وما يتعلق بها, فإننا نراه يستعير (النّور) للهداية والصلاح والإيمان بالله عزّوجل , ويستعير (الظلمات) للكفر والضّلالة والشك, ذلك في أكثر من موضع في القرآن الكريم, وقد صيغت بجملٍ ونصوص بلاغية ترسم صورًا حسية , معبرًا بنها عن معانٍ ذهنية, تحتوي على كلّ ما يتعلق بالضّلالة والكفر, فيتمثل بالظلمات ,وبالمقابل فإنّ كلّ ما يتعلق بالهداية والإيمان , فإنّه يتمثل بالنّور, ويعدّ ذلك من المقابلات الضديّة العجيبة.

ومن المعلوم أنّ الاستعارة والتشبيه بينهما علاقة وطيدة, إذ يمكننا الوصول إلى نمط الاستعارة عبر نمط التشـــبيه, فالنّور كالإيمان, والظلام كالكفر, ونجد أنّ عمق المعنى في الاســـتعارة, إذ يتداخل المستعار منه مع المستعار له, فيكونان عنصرًا جديدًا يمثل الاستعارة التي لا تخص المعنى الظاهر في السياق[1] . وردت هذه الثنائية الضديّة في سبعة مواضع مقترنة بفعل (الإخراج), والذي سيكون واحدًا منها هو محور حديثنا, هذا وقد جاءت هذه الثنائية في جميع هذه المواضع على نمط الاستعارة التصريحية, مقترنة بفعل (الإخراج)بصيغتي الفعل المضارع والفعل الأمر, أنّ القائم بفعل الإخراج في ستة منها هو الله عزّ وجل, إذ يكون الإخراج من الظلمات إلى النّور, أما الإخراج الآخر فيقوم به أولياء الطاغوت ,الذي يتم من النّور إلى الظلمات.

والموضع الذي نتناوله هو في قوله تعالى , في (البقرة :٢٥٧) .

ورد في هذا التصوير البياني, صورتين فيهما استعارتين تصريحيتين , الأولى , استعار إخراج المؤمنين من الكفر والضّلالة إلى الإيمان والهداية , وهذا الإخراج تمّ بلطف الله وفضله, وهو من نعم الله تبارك وتعالى , ونعم الله كثيرة لا تعد ولا تحصى, والاستعارة هنا تتمثل في المستعار منه (النّور) , والمستعار له (الإيمان).

.

وفي الصورة الثانية, فإنّ الإخراج يتم من نور الله , من نور الهداية والإيمان والراحة النفسية المتمثلة بالنّور , إلى الشـــك والحيرة والقلق الذي يخيم على عقولهم ويتمثل ذلك بالمســـتعار فنه(الظلمات), والمستعار له (الكفر).

وبذلك تكون وظيفة النّور والظّلام, ومن خلال هذا النمط الاســـتعاري, هي بيان جهة الإيمان المتمثلة بالنّور المقترن بصـــالح العمل, الذي يترك أثرًا جليًا في الســـعادة, وبين جهة الكفر المتمثلة بالظلمات المرتبط بطالح العمل والذي ســـببه الجهل والريبة والشـــك, وإنّ الله عزّو جل هو الذي يقوم بفعل الإخراج للمؤمنين من الظلمات إلى النّور , من الكفر والشك والهلاك إلى الإيمان والهداية والضياء.

ولا بدّ أن نعرف أن أصل الوجود الظلمة ,وجاء النّور ليكون الكاشف للرؤية, الكاشف لكل ما حجبه الظلام, والظلام هو العتمة, والحاجب لطرق الهداية, و الظلمة هي الحالة الســـابقة للعوالم قبل خلق النور في الأجســـام النيّرة ؛ لأنّ الظلمة عدم' والنّور وجود , فالنّور الصـــادر من القمر هو انعكاس لأشعة الشمس عليه فهو في الأصل كوكب مظلم, هذا الانعكاس الذي صدر عنه النّور(الله سبحانه وتعالى), إذ يُصْـــدِر النور الهادي من باطن الظلام ,فيكون الله هو مصـــدر النّور الأول في الكون, والمتمثل بالبصر والبصيرة والضياء والهداية .

النّور والظّلام واقترانهما بالاستعارة في مقام الفعل (جَعَل):

اقترنت الاستعارة في الثنائية الضديّة (النّور والظّلام) بالفعل (جعلَ),في أكثر من صورة بيانيّة , زيّنَتْ آيات قرآنيّة مباركة, ومنها قوله تعالى في(الأنعام : ١) .

اسْتُهِلَ النصّ القرآني المبارك بالحمد لله , ووجد فيه الفعلين(خَلَقَ و جَعَلَ), ولكلّ منهما معنًى يختلف عن الآخر, لقد ارتبط الخلق با لسماوات والأرض, قدرهما أوجدهما بعظمته , أما الجعل فقد ارتبط بالاستعارة في الظلمات والنّور.

وفي مقابل خلق السماوات والأرض نجد جعل الظلمات والنّور وتصييّر النّور من الظلمات, وكما ذكرنا فإن أصل الوجود ظلام ,وجاء النّور بأمر النور الله جلّ جلاله ليزيل الظلام الحسّي والمعنوي من البصر والبصيرة .

وعلى نحو ما تقدم, ومن خلال الآيات انتي وردت في مقام الفعل(جعلَ), نصل إلى معادلتين يمكننا من خلالهما الوصول إلى دلالة الظلمات والنّور, الأولى : (الليل __ الظلام __ حجب الرؤية __ حجب البصر والبصيرة __ الظلمات) .

والثانية: (النهار __ الضياء ___ إطلاق الرؤية ___ معاش حسّي ومعنوي ___ النّور) .

بعد ذلك نصل إلى أنّ المتمعن في القرآن الكريم يجد فيه صورًا بيانيّة كثيرة يقترن فيها ظهور الاستعارة مع ثنائية النّور والظلام في مقام الفعل(جعلَ), منها ما ورد ذكره, ومنها ما يقترب منه .

يعدّ القرآن الكريم أول متعلق من متعلقات النّور الذي يمثلها الله جلّ جلاله , و لا يختلف كلّ ذي لبّ من أنّ كلّ ما يأتي من الله هو خير, ففي تعاقب الليل والنّهار, وأن يأتي أحدهما بعد الآخر, وكل منهما جاء لغرض, وفي هذا الغرض منفعة للنّاس والكائنات الحية.

النّور والظلام في مقام الاستعارة مقترنة بالفعل (نَزَلَ) :

اهتم التصوير البياني في النص القرآني المبارك بعدة مفردات لها الأثر الكبير فبي إثراء النص بلاغيًا, ومنها مفردة (نزَلَ), وفي الحقيقة أنّ المعنى الحقيقي لهذا الفعل يعطي طاقة كلية للمعنى العام في السياق, طاقة ايجابية إضافية تعمل على نقل المعنى الحسّي إلى المعنى المادي, وقد جاء في القرآن الكريم ما يشير إلى أنّ الفعل (نزلَ) والصيغة التي وردَ فيها, قد اقترن بالنّور_ موضوع البحث_ وكذلك اقترن بموضوع التحكم من قِبَلْ المنَزِل (الله جلّ جلاله), فتكون عملية الإنزال هي التي تضيف طاقات للنص.

ونجد في قوله تعالى في (التغابن :٨), صورة بيانية فيها استعارة في مقام النّور مقترنة بالفعل(نَزَلَ) بصيغة(أنْزَلْنا), فيكون النور مستعار منه (مشبه به), إلى (القرآن) المستعير له .

تظهر في هذه الصورة البيانيّة, صورة مجازية تمّ فيها استعمال النّور في مقام الاستعارة التصريحية, إذ شبه القرآن بالنّور, لما فيه من أحكام وتعاليم تخرج النّاس من الظّلمات إلى النّور, والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي هي: (الذي أنْزَلْنَا), والقرآن هو النّور الذي أنزلنا, لما يحمل من سمات عظيمة, فيكون كالنّور في كونه مصدر إشراق وإضاءة , فهو مصدر إشراق فكري وروحي, وكما أنّ النّور يهدي النّاس إلى الطريق السالك وسط الظلام, فإنّ القرآن يهدي النّاس إلى طريق الإيمان والحقّ, ومن المؤكد أنّ نور القرآن أبلغ وأكبر من النّور الطبيعي.

النّورُوالظّلامُ في مَقَامِ تعالق اللّيل والنّهار مقترنًا بالاسْتعَارةِ:

نرى في أكثر من نص قرآني, فيه تصويرًا بيانيًا قد وردَ في مقام التعالق بين(الليل والنّهار), يقترن ذلك في نمط الاستعارة, ومن المعلوم أنّ الليل والنّهار هما من متعلقات (الظلمات والنّور), ومن ذلك قوله تعالى في(الفرقان: ٦٢) .

تتواجد في هذا التصوير القرآني البياني , استعارة في قوله تعالى: (خلفة) , أي : جعل الليل والنهار يختلفان ,أحدهما يأتي بعد الآخر, وبينهما خلاف كثير, من ذلك أن الليل يملأه السواد, أما النهار فيملأه البياض, وكذلك يأتي أحدهما بعد الآخر, فيحدث التعاقب والتعالق بينهما, إذ يطلب أحدهما الآخر, الظلام يغطي النّور , ويعود النّور ليغطي الظلام, ولكلّ منهما وظيفته الخاصة به, الليل بسكونه وبسواده الذي يحجب البصر, ولكنه لا يؤثر على بصيرة الإنسان, في أن يعمل الخير سرًا تحت جناح الليل, فيكون عمله خالصًا لوجه الله , وكذلك يمكن أن يكون الليل ساترًا لكثير من أعمال الشر.

أما النّهار بضيائه والنّور الذي يملأ أركانه , فيكون مخصصًا لكسب الرزق وعمل الخير , بعد أن تتوضح سبله, وكذلك هو كاشف لكلّ ما يحجبه الليل من الأشياء .

قبل أنْ نسدل الستار على هذا البحث , لا بدّ من القول : إنّ فن الاستعارة هو من الفنون البلاغية الثرّة والغنية في تراثنا العربي, وقد كان له حصة كبيرة من عناية القدماء, ولم يزل يحتل مكانة رفيعة في دراسات المحدثين, لما لهذا النمط البياني من أهمية في عملية الإبداع اللغوي.

ويمكن القول إنّ القرآن الكريم يعدّ إعجازًا خالدًا سرمديًا لا نهاية له , لذلك نجد فيه تصويرًا بيانيًا فريدًا في رسمه, ومنه ما أظهره فن الاستعارة الذي طرز الكثير من لوحات هذا التصوير الباهر, وما يهمنا هو الاستعارة المقترنة بالظلمات والنّور والتي انتظمت في سياقات قرآنية متعدد كانت دلالتها تعطي (الكفر والإيمان), وكانت وظيفة النّور الرئيسة هي الهداية والإيمان في البصر والبصيرة, أما الظلام فوظيفته الرئيسة هي الضّلالة والتيه في أغوار الكفر والشك , وفي الحقيقة أن مصدر النّور هو أصل النّور الله عزّ وجل , أما الظلمات فهي نتيجة لما كسبت أيدي النّاس .

الخاتمة :

حاول البحث استحضار ثنائية النّور والظلام في التعبير القرآني وحضورها التصويري والقدرة على إثارة الخيال ورسم الصورة, وبرزت النتائج الآتية :

- إنّ فن الاستعارة لا يتقنه إلا المبدع الذي يقترن إبداعه بالانفعال المصحوب بخيال واسع, لأنّ الخيال يحرر الذهن على ما يدور في محيط المبدع في الواقع والحقيقة.

- تطور مفهوم الاستعارة وصارت تلازم كلام الأدباء .

- إنّ المتمعّن في القرآن الكريم, يجد فيه صورًا بيانيّة كثيرة يقترن فيها ظهور الاستعارة مع ثنائية النّور والظلام في مقام الفعل (جَعَل) .

- نحن لا نبحث في متعلقات البناء , بقدر بحثنا في الأثر الذي ينتج النمط الاستعاري في مقام النّور والظلام.

- النّور هو سبب طمأنينة القلب, كالذي يسير في الطريق ليلًا وقد غمر الظلام كل منافذ الرؤية , فيكون المصباح هومن ينير الطريق ويؤمن الأمن والأمان, وكذلك نورَ الله عزّ وجل قلوب المؤمنين, فلأمر يرتبط بإدراك الكيفية التي يظهر فيها فن الاستعارة .

- لكل سورة من سور القرآن الكريم خصوصيتها البيانية, فلها أسلوبها الخاص الذي يتناسب مع المضمون الذي يهدف إلى توضيح قضية ما, تهمّ الإنسان, والبيان هو من يؤدي بنا إلى معرفة مضامين السور القرآنية الكريمة, ولا سيما فن الاستعارة .

إنّ دراسة القرآن الكريم نعمة أشكر الله أنْ هداني إليها , وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .